المجلد (٢٥) العدد (١٠) ٢٠١٨ (١٠٣-١١٧)

كليـــة التربية للعلوم الانسانية
College of Education for Human Sciences

Journal of Tikrit University for Humanities

JTUH
مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية
Journal of Tikrit University for Humanities

Ibtihal Abdulkareem Faisal Al-Sadoon[١]

Raeed Hazim Hasan [٢,*]

[١] College of Education for Women
Tikrit University
Salahudeen
Iraq

[٢] College of Arts
Tikrit University

Keywords:
In
fi
C
M
F

ARTICLE INFO

Article history:
Received ٢٩ May ٢٠١٨
Accepted ٠٠ xxx ٢٠١٨
Available online ٠٥ xxx ٢٠١٨

IMPACT OF THE SECOND ABBASID ERA TURMOIL ON ABI HAIAN AL-TAWHAIDI

A B S T R A C T

During the second Al-Abbasi period, the scientific movement witnessed a flourishing and flourishing witnessed not before or after this period, so that many of the writers considered this stage one of the most fertile Arab-Islamic cultural stages. Political fragmentation has had a great impact on that prosperity. Although many regions have left and independent Baghdad, these provinces have been the cause of this prosperity. They have not only been competing with each other in politics but have also been most competitive Despite the cultural prosperity, the impact of political, social and economic turmoil on many of the clients and writers of the era has been reflected. Among the most famous of these is Abu Hayyan al-Tawhidi, who joined his literature with a touch of sadness, which often resulted in barbarous him to pessimism and then to rebel against this miserable situation, which suffered is a group of writers of his time, and we will address this in our article – Insha'a Allah - to explain it all.

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit

أثر اضطراب العصر العباسي الثاني على أبي حيان التوحيدي

ابتهال عبد الكريم فيصل –كلية التربية للبنات، جامعة تكريت، صلاح الدين، العراق

رائد حازم حسن –كلية الآداب، جامعة تكريت، صلاح الدين، العراق

الخلاصة

شهدت الحركة العلمية خلال العصر العباسي الثاني ازدهارًا وانتعاشًا لم يشهد له مثيل لا من قبل ولا من بعد هذه الفترة، حتى أن الكثير من الأدباء اعتبر هذه المرحلة من أخصب المراحل الثقافية العربية الإسلامية. وقد كان للانقسام (١) السياسي الأثر العظيم في ذلك الازدهار، فعلى الرغم من خروج الكثير من الأقاليم عن بغداد واستقلالها عنها إلا أن هذه الأقاليم كانت نفسها سببًا في هذا الازدهار، إذ إنها لم تكن متنافسة فيما بينها في شؤون السياسة فحسب، بل كانت أيضًا متنافسة أشد ما يكون التنافس في جلب الأدباء والعلماء والإغداق في العطاء والبذل لهم لتشجيعهم على البحث والتأليف(٢)، إلا أنه وعلى الرغم من هذا الازدهار الثقافي فقد انعكس أثر الاضطرابات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الكثير من عملاء وأدباء العصر، ومن أشهر هؤلاء أبو حيان التوحيدي الذي التحق أدبه بمسحة من الحزن والانقباض اللذين كثيرًا ما أفضيا به إلى التشاؤم ومن ثم إلى التمرد على هذا الوضع المزري الذي عانى منه هو ومجموعة من الأدباء في عصره، وسوف نتطرق في مقالنا هذا – إن شاء الله – إلى توضيح ذلك كله.

* *Corresponding author: E-mail* : adxxxx@tu.edu.iq

الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العصر العباسي الثاني وأثر ذلك على أهل العلم والأدب:

لقد عرف المجتمع العباسي في القرن الثالث والرابع الهجريين بالكثير من مظاهر الفوضى والتقهقر ، فُقِدَ الأمن وكثر القتل وأصبحت المناصب الحساسة في الدولة نهباً بين الأقوياء. يقول ابن الأثير في وصفه للحالة المزرية التي آلت إليها السلطة خلال حوادث (٣٣٤ هـ) إنه "في خلافة المطيع شغب الجند عن معز الدولة، وأزعجوه فضمن لهم أرزاقهم، واضطر إلى خبط الناس، وأخذ الأموال من غير وجوهها، وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعاً ... وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب" (٣)، كثيرة هي المشاكل السياسية والمذهبية في العصر العباسي الثاني. لقد كانت أمور الخلافة قد تطرق إليها الاضطراب منذ مستهل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بسبب استبداد الأتراك بالأمور دون الخلفاء، كما ازداد عدد الخارجين عليها ممن حمل لواء الثورة على السلطة، والتمرد على الحكم يضاف إلى ذلك ما أصاب الإدارة من فساد واضطراب.

فبعد أن كانت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين سيادة دينية أولاً ثم دنيوية ثانيًا، ثم غدت في عصر السيادة العربية (العصر الأموي وصدر العصر العباسي) ملكًا واسعًا عظيمًا فلما انتهت هذه الفترة بدأت السيادة العربية تضعف رويدًا رويدًا وتحوَّل الحكم من سلطة ملكية إلى زعامة دينية مستضعفة إذ تغلب العجم الفارسيون ثم الأتراك على الدولة العباسية، فتقلصت هيبتها وضاع صيتها خاصة حين تسلم الأتراك المناصب العليا في الجندية ثم الإدارة فأصبح الأمر كله بيدهم يولون الخلفاء تارة ويخلعونهم أخرى، فأذاقوهم ألوان الهون والتعذيب الذي ينتهي في الغالب بالقتل ، وقد جاء في الفخر قول صاحبه واصفًا دولة بني بويه الذين حكموا طيلة القرن الرابع الهجري فبسطوا يدهم على السلطة والشعب فيقول : "دوّخت الأمم، وأذلت العالم، واستولت على الخلافة، فعزلت الخلفاء وولتّهم واستوزرت الوزراء وصرفتهم، وانقادت لأحكامها أمور بلاد العجم والعراق وأطاعتهم رجال الدولة بالاتفاق" (٤).

ضعفت الخلافة المركزية في بغداد بدخول القرن الرابع الهجري، ولم يبق للخليفة أي نفوذ فعلي في المملكة، فكانت بلاد فارس في يد بني بويه والموصل والشامل في يد محمد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين، وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية إلى جانب إمارات أخرى، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات هي : الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في إفريقيا، والخلافة الأموية في قرطبة، فأصبحت مملكة بني العباس نهب أيدي الأتراك والديلم وكلهم اجتهد لنزع تراث العباسيين من أيديهم (٥).

ويبدو أن الخط الذي كان يهدد الدولة العباسية لم يكن من الداخل فحسب، بل وحتى من

الخارج حيث تفاقم خطر الروم في القرن الرابع الهجري ، وأخذوا يهددون شمالي العراق وبلاد الشام وكانوا يريدون الوصول حتى إلى بغداد وسواحلها(٦) فانعكس ذلك على الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فمن الناحية الاجتماعية ظهر بون شاسع بين الطبقات الشعبية وابتعاد عن العدل في توزيع الثروة العامة وظهرت الطبقية بشكل صارخ، فأصبح المجتمع يتكون من "الطبقة العليا التي تشمل الخلفاء والوزراء والقوات والولاة وما يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورؤوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار وهذه الطبقات كانت غارقة في النعيم تجبي لها الأموال من كل مكان، وطبقة وسطى وتشمل رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع، وطبقة دنيا وتشكل العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق"(٧) ، ومن هنا وجِد في المجتمع الأغنياء الذين يملكون الأموال الفاحشة والفقراء الذين يرزحون تحت وطأة الفقر وشظف العيش ، لقد كانت الحالة الاجتماعية للطبقة العامة في حالة مزرية للغاية بسبب سوء توزيع الثروة العامة وذيوع الاستغلال والترف والبذخ في الطبقات العليا على حساب الطبقات الدنيا.

وتُعد كتب التوحيدي صورة صادقة عن الحالة البائسة التي آل إليها المجتمع في العصر العباسي الثاني ولم يسلم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة من تلك الحالة، فهذا أبو سليمان السجستاني المنطقي المشهور : "بحاجة ماسة إلى رغيف وحوله وقوته، قد عزا عن أجرة مسكنه، ووجبة غدائه وعشائه" (٨)،

وكان المعافى بن زكريا النهرواني ذا أنسة بسائر العلوم شاهده التوحيدي :"في جامع الرصافة وقد نام مستدبرًا في يوم شات ، وبه من أثر الفقر والبؤس أمر عظيم مع غزارة علمه واتساع أدبه، وفضله المشهور" (٩)،وهذا أبو بكر القومسي "وكان بحرًا عجاجًا، وسراجًا وهاجًا"(١٠) قد بلغ من الضر والفاقة ومعاناة الشدة منزلة عظيمة، وهكذا كان الفقر والعوز من أهم ما ميز حياة أكثر الناس في العصر العباسي الثاني بما في ذلك أهل العلم والأدب.

أثر الاضطراب الشامل في العصر العباسي الثاني على واحد من أدباء العصر (أبو حيان التوحيدي):

لقد عاش التوحيدي(١١) مدة طويلة وهو يعاني آلام البؤس والحرمان كيف لا وهو يحترف- على كره منه-مهنة الوراقة وهي مهنة شاقة متعبة قائلاً :"لقد استولى عليّ الحرف(١٢)،وتمكن مني نكد الزمان إلى الحد الذي لا استرزق مع صحة نقلي، وتقييد خطي، وتزويق نسخي، وسلامته من التصحيف، والتحريف، بمثل ما يسترزق البليد الذي ينسخ النسخ ويمسخ الأصل والفرع"(١٣).

وهكذا كره أبو حيان هذه المهنة التي كانت سبب فقره، وسخط عليها وتذمر منها لأن فيها ذهاب العمر والبصر (١٤) فمردها ضئيل، وصاحبها في فقر دائم ، فاشتد بغضه لها حتى غدت في عينه إحدى المنغصات التي أفسدت مزاجه وعكرت عليه صفو حياته (١٥) والملاحظ أن التوحيدي لم يكن

منفردًا في حالته تلك، فالكثير من علماء القرن الرابع قد امتهن أحقر المهن (١٦) ورضخ تحت وطأة الفقر، وعانى البؤس والحرمان، وقد أورد التوحيدي أمثلة عديدة عن حالة البؤس التي انحدر إليها زملاؤه من المفكرين والأدباء (١٧) لذلك نجد التوحيدي يقف ساخطًا متمردًا على العلم الذي لا يصون صاحبه : إذ العلم في نظره وسيلة لطلب الدنيا" (١٨)، ويقف مدافعًا عن تلك الفئة من العلماء والأدباء التي تحاول جاهدة أن تصون ماء وجهها بعدم الترامي على الأعتاب التي تترفع على المزاحمة أمام الأبواب وهي فئة موجودة وإن كانت قليلة، يطالب التوحيدي بضرورة تقريبها وإكرامها لأن أصحابها هم رجال "رأوا أن سف التراب أخف من الوقوف على أبواب إذا دنوا منها دفعوا عنها" (١٩).

لقد عاش التوحيدي حياة أقل ما يقال فيها أنها مخاض طويل وصعب اضطره في الكثير من الأحيان إلى أن يبيع فيها الدمة والمروءة، وإلى أن يمارس النفاق والكذب عله يحظى بما ينجيه من وطأة الفقر ، وقد سجل هو ذلك على نفسه في نص نادر من أدب الاعترافات وذلك في الرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل علي بن محمد ، وهي آخر ما وصلنا من ذلك المثقف الموسوعي الكبير حيث اختفت أخباره تمامًا بعدها، فجاء في الرسالة ما يلي : "لقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم"(٢٠).

لقد أراد التوحيدي من العلم والأدب أن يكون وسيلة لتحقيق ما يصبو إليه من غنى وجاه ، ولكن الحظ لم يسعفه فكان الفقر حليفه، فأصبح العدو اللدود المصاحب له ، فوصفه بأقذع الأوصاف، فهو الذي يخرج المرء عن دينه، ويسلبه مروءته وعزة نفسه يقول فيه :"الفقر ليس لصاحبه عياذ من التقوى ، ولا عماد من الصبر ولا دعامة من الأنفة واصطبار على المرارة، وهو جالب الطمع ، وكاسب الجشع والضرع وهو الحائل بين المرء ودينه بل هو سد دون مروءته وأدبه وعزة نفسه"(٢١).

وهكذا فالفقر في نظر أبي حيان عدو يسلب الإنسان مروءته، فنجده يشهر سلاح التذمر والشكوى وفي ذلك موقف عبر به عن رفضه لهذا الواقع الذي فرض عليه فيثور وإن لم يكن ذلك بالسيف فإنه بسلاح لا يقل حدة.

وكثيرًا ما تنفقع مرارة الرجل بسبب فقره، ويشتط به الأمر، فيضطره إلى تعريض أعز ما يملك كرامته وأدبه للمهانة، والمدح الرخيص فيقول : "أنا سامع مطيع وخادم شكور، ومثلي يهفو ويجمح، وأنت مولى وأنا عبد، وأنت آمر وأنا مؤتمر، وأنت مصطنع وأنا صنيعة، وأنت منشئ وأنا منشأ ، وأنت أول وأنا آخر" (٢٢)ويتابع أبو حيان في الحديث نفسه ، وما يختلجها من أسى ولوعة، وما يلقاه من صد وإهمال ونكران فيقول : "أيها الكريم ارحم، والله ما يكفيني ما يصل إليّ في كل شهر من هذا الرزق المقتر الذي يرجع بعد التقتير والتيسير إلى أربعين درهمًا مع هذه المئونة الغليظة والسفر الشاق والأبواب المحجبة

والوجوه المقطبة والأيدي المسمرة، والنفوس الضيقة والأخلاق الدنيئة، أيها السيد أقصر تأميلي، ارع ذمام الملح بيني وبينك وتذكر العهد في صحبتي ، طالب نفسك بما يقطع حجتي، دعني من التعليل الذي لا مرد له والتسويف الذي لا آخر معه" (٢٣).

وهكذا فقد حاول أبو حيان بكل السبل التمرد على وضعه وفقره، الذي آمله فحاول بكل جهد أن يدفعه وإن كان ذلك عن طريق التوجع والاستجداء، وهو من خلال ذلك كله إنما يعكس لنا مشكلة الطبقية في القرن الرابع الهجري بل وفي كل زمان ومكان فهي مشكلة فقراء وأغنياء، ميسورين ومحرومين(٢٤) .

لقد تمرد أبو حيان على واقعه وثار في وجه القدر، وصرخ معبرًا عن مرارة غضبه على الأيام، فأعلن الشكوى من زمانه، وبكى في إبداعاته على معاناته وحرمانه كيف لا وهو "على كثرة ما صحب من ذوي السلطان وأصحاب النفوذ في الدولة بائسًا فقيرًا، رقيق الحال دائم التفكير في أهل الدنيا وما يمرح فيه الجاهلون والمنقصون ومقارنة ذلك كله بما هو عليه من البؤس والشقاء وشظف العيش، وتكفف الكريم واستجداء البخيل واللئيم على سعة فضله، وإحاطته بما يلهج به الناس من المعارف إلى وقته ..." (٢٥) وشدة فزع الرجل من الفقر إنما نلمحه في كتاباته ، فها هو يكتب إلى أبي الوفاء مستجديًا طالبًا منه أن ينتزعه مما هو فيه من هول الفقر : "خلصني أيها الرجل من التكفف ، أنقذني من لبس الفقر أطلقي من قيد الضر، اشتري بالإحسان اعتبدني بالشكر، استعمل لساني بفنون المدح، اكفني منونة الغداء والعشاء ..." (٢٦).

كثيرة هي النصوص التي عكس فيها الرجل تمرده وسخطه على الفقر ، فنلاحظ جليًا من خلال ما سبق وفي معظم ما خط التوحيدي يراعه تذمر هذا الأديب المنسحق تحت وطأة الفقر والعوز، لم يعرف الرجل استقراراً ولا أمانًا كل ذلك على أمل التخلص من هذا الصاحب الثقيل الذي أبى إلا أن يصاحبه طيلة عمره ، فتنقل بين بغداد والري ونيسابور وواسط وشيراز (٢٧) كل ذلك بغية الخلاص منه ، إلا أن القدر أراد غير ذلك ، لقد غدا الفقر في نظر التوحيدي وهو الرجل المرهف المشاعر ، رقيق الإحساس سريع التأثر والانفعال ، فكرة رهيبة، تنطوي على معاني الحرمان والجهد الأليم لذا يظهر لنا الفقر في كل نفثة من نفثاته يقول : "رأيت شبابي هرمًا بالفقر ، وفقري غنيًا بالقناعة" (٢٨) وقد بلغت به شدة حاله وعوزه أنه كان لا يظفر حتى بقوته الضروري وعجز في الحصول حتى على "طمرين للتستر لا للزينة والاختيال" (٢٩)، فكان يأكل الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية، ويلبس القميص المرقع ويتأدم بالخبز والزيتون (٣٠).

وما التوحيدي في الواقع إلا صورة لمثقفي القرن الرابع الهجري فكانت آثاره صدى لحالة البؤس التي انحدر إليها الناس في زمانه ومن بينهم المفكرون وأهل الأدب والمعرفة لكن تفرده يظهر لنا في شدة شعوره بهذا الفقر وفي كثرة تبرمه به ومحاولته التخلص منه وكثرة شكواه خاضعًا في ذلك كله لشعوره بأنه يستحق

أكثر مما منحته الأيام (٣١) ، لقد وقف أبو حيان من الفقر في زمانه موقف الناقد والرافض والمستنكر، ولعل ذلك هو ما حمله إلى أن يقول على لسان بن السماك (أبو العباس محمد بن صبح الكوفي ، ت: ١٨٣هـ / ٧٩٩م) (٣٢).

"لولا ثلاث لم يقع حيف لم يسلّ سيف :
لقمة أسوغ من لقمة
ووجه أصبح من وجه
وسلك أنعم من سلك" (٣٣).

فنجد هاهنا يقف موقف المصلح في مجتمعه، معللاً سبب مختلف الاضطرابات والصراعات الاجتماعية التي يتخبط فيها ابناء عصره، فيؤكد أن ذلك يرجع إلى التفاوت الاقتصادي، وبذلك يؤكد التوحيدي على أن البون الشاسع الموجود بين طبقات مجتمعه هو سبب الصراع والتطاحن فيما بينها، وكأني به يدعو ضمنيًا إلى ضرورة المساواة الاقتصادية حتى يتوفر الاستقرار الاجتماعي، وحتى يستتب الأمن فلا يسل الناس السيوف على بعضهم البعض(٣٤).

مواقف كثيرة مبثوثة في آثاره يعكس لنا التوحيد من خلال تصويره لمعاناة وفقر الآخرين (٣٥) معاناته هو وفقره فنلمس بذلك فظاعة المرارة التي عانى منها الرجل، وذلك أمر طبيعي على كل من كان في مثل علمه وأدبه ومع ذلك يجد نفسه عاجزًا حتى على أن يجد عملاً، أو رأس مال يستعمله في تجارة او حرفة تؤمن له رزقه، فيصون بذلك ما وجهه من ذل السؤال لكن هيهات، فيضطر إلى أن يطلب من أبي الوفاء المهندس أن يستعمل جاهه عند الوزير ابن سعدان وذلك كي يجد له عملاً، أو يمده برأس مال يعتق نفسه من الفقر والحاجة فيقول :

"سرّحني رسول إلى صاحب البطائح (٣٦) أو إلى أبي السؤل الكردي (٣٧) أو إلى غيره ممن هو في الجبال هذا إلى أن تؤهلني برسالة إلى سعد المعالمي (٣٨) بأطراف الشام وإلى البصرة ، فإني أبلغ في تحمل ما أحمل ، وأداء ما أؤدي ، وتزيين ما أزين حدًا أملك به الحمد وأعرف فيه بالنصيحة وأستوفي فيه الغاية دع هذا، ودع لي ألف درهم ، فإني لأتخذ رأس مال وأشارك بقال المحلة في درب الحاجة" (٣٩) . يتجلى لنا من خلال ما سبق أن التوحيدي كان يدرك قدراته وإمكانياته في القيام بأعظم الأعمال وأجلها، ولكنه بطال لا يقدر على تأمين عيشه، وهذا ما يزيد في مرارته وحزنه وبالتالي تمرده ورفضه لهذا الواقع الذي لا يعطي لأصحاب الحق حقوقهم فيتركهم يعانون الفقر والحرمان بينما ينعم غيرهم في بحبوحة من العيش.

لقد عانى التوحيدي الكثير من الفقر الأمر الذي أداه هو ومن كان في مثل حاله إلى الوقوع تحت وطأة التطيّر والتشاؤم، فأصبح يرى أن حظه من الحياة العصر وأن الشؤم له قرين وها هو ذا يورد لنا قصة

أبي بكر القومسي وقصيدة العطوي لا لشيء إلا ليصف من خلالهما حاله(٤٠). إذ يقول : "وأنشدنا أبو بكر القومسي الفيلسوف ... وكان من الضر والفاقة بمنزلة عظيمة، عظيم القدر عند ذوي الأخطار، منحوس الحظ منهم، متهمًا في دينه عند العوام مقصود من جهتهم، فقال لي يومًا: ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسان ما بلغت مني ، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلدًا أملس، وكأن بالعطوي ما أراد بقصيدته غيري، وما عنى بها سواي ، ثم أنشدنا للعطوي :

من رماه الإله بالإقتار ... وطلاب الغنى من الأسفار
هو في حيرة وظنك وإفلا ... س وبؤس ومحنة وصغار
يا أبا القاسم الذي أوضح الجو ... د إليه مقاصد الأحرار
خذ حديثي فإن وجهي مذ با ... رز هذا الأنام في ثوب قار
وهو للسامعين أطيب من نف ... ح نسيم الرياض غب القطار
هم البرد مسرعا ويدي صفـ ... ـر وجسمي عار بغير دثار
فتسترت منه طول التشاري ... ن إلى أن تهتكت أستاري
ونسجت الأطمار بالخيط والإبـ ... ـرة حتى عريت من أطماري
وسعى القمل من دروز قميصي ... من صغار ما بينهم وكبار (٤١)

وهكذا كثير ما كان يلجأ التوحيدي إلى استلهام شخصيات شعبية، وهي في الواقع نماذج تعكس لنا صورة حياته القاسية اتخذها التوحيدي وسيلة لتصوير واقعه المر وواقع فئة من الناس عاشت الفقر وظلم الدهر هي فئة العلماء والفقراء والبؤساء (٤٢)، وفي الوقت الذي يشكو فيه التوحيدي عن طريق هذه النماذج الإنسانية فقره وعوزه نجده يعلن تمرده وسخريته من خلال تمرد هؤلاء ، فالقوسي الذي رفض أن يقصد ابن العميد وابن عباد حين نصح بذلك فقال : "معاناة الضر والبؤس، أولى من مقاساة الجهال والتيوس والصبر على الوحم الوبيل أولى من النظر إلى محيا كل ثقيل ، ثم أنشأ يقول معلنًا رفضه وتمرده على أمثال هؤلاء فيقول (٤٣):

بيني وبين لئام الناس معتبة ... ما تنقضي وكرام الناس إخواني
إذا لقيت لئم القوم عنفني ... وإذا لقيت كريم القوم حياني

والغاية التي يريدها التوحيدي من خلال إيراده لهذه الحكاية ولهذا الشعر الذي أثبت فيهما الموقف التمردي للرجل أن يعكس تمرده فهو يقول : "فقلت له : ما أعرف لك شريكًا فيما أنت عليه وتنقلب فيه وتقاسيه سواي" (٤٤).

وهكذا فقد كان التوحيدي من الذين حكمت عليهم الأقدار بالفقر والبؤس والشقاء ، ومما زاد الطين بلة كونه يحمل بين جوانحه نفسًا ميالة إلى التنعم بالعيش ، وإلى الاستمتاع "بحياة لذيذة"، وعلى الرغم من اتجاه إلى التصوف، وتظاهره بالزهد والقناعة إذ كان صوفي السمت (٤٥)، قبيح الهيئة، حقير اللبسة" (٤٦) كانت نفسه تنزع دومًا إلى تحقيق رغباته ، وإلى الفوز بالغنى والجاه لأن "هذه العاجلة محبوبة والرفاهية مطلوبة، ، والدنيا حلو خضرة، وعذبة نضرة"(٤٧) ، ولكنه واجه عقبات جمة عكرت صفو حياته الأمر الذي أداه إلى "اتخاذ الانتقباض صناعة" (٤٨) وصار يتنغص "لبعد ما يشتهي" (٤٩) حتى غدا محدودا فصار يتشكى صرف زمانه ويبكي في تصانيفه على حرمانه" (٥٠) ، وكيف لا يبكي صرف الزمان وهو يعتقد أنه رجل موهوب ، ذو ذكاء ممتاز وملكات متفوقة، ولكنه قدر عليه أن يعيش دهره فقيرا بائسا محرومًا ، كما نجده في موقفه ذلك الذي نبذه بعض الدارسين (٥١) ، أفضل من الكثيرين ممن كانوا في مثل حاله حيث تدنوا إلى المستوى الذي يتمنى فيه أحدهم لو كان شجرة أو حجرًا حتى يسلم مما هو فيه من حرمان، بل أن هناك من تمنى لو أنه كان بقرة حين رأى واديًا أغنى بالكلأ وقد استحلت الأرض خضرة وذلك حتى يسد رمقه ويأكل مما يرى أكلا ذريعا فيقول التوحيدي معلقا على هذا : "فهل تظن – حفظك الله – بعد هذا ، بمن هذا حديثه ، وجملته وتفصيله، أن ينتعش من صرعته أو يستبصر في شأنه أو يهتدي لسعادته ، أو يلتفت إلى معاده ، وهل بين هذا وبين الحمار الذي هو حيوان نهاق فرق ... على أني شاهدت مثل هذا إنسانًا متماسكًا، وكان له حظ من التجربة بالسنن العالية، والسفر البعيد، وكان متميزًا بمذاهب الصوفية يقول يومًا وقد أبصر حمارًا يمشي : ليتني كنت هذا الحمار ، فعجبت فضل عجب ، وانكشف لي أنه إنما تمنى ذلك ليكون ناجيًا من قلائده ومئونة ما هو بعرضه، ...، وما هو مأخوذ به ومخوف منه ومعد له آجلاً" (٥٢).

من خلال ذلك نستخلص أن أبا حيان استطاع أن يعرف قيمة الجوهر الإنسان وحقيقته على أن يكون مثل هؤلاء (٥٣) واستهجن مثل تلك التمنيات، ووقف في مواجهة واقعه المر، معلنًا عن موقفه الرافض لذلك دون أن يتنازل عن قيمته كإنسان، وتفكيره هذا جعله يرفض موقف أولئك الذين يلجأون إلى الانتحار هروبًا من واقع، فيقول متسائلاً : "ترى ما السبب في قتل الإنسان نفسه عند إخفاق يتوالى عليه، وفقر يحوج إليه وحال تتمنع على حوله وطوقه" (٥٤)، ثم هو يسأل بعض مشايخه بمدينة السلام عن رجل اجتاز بطرف الجسر، وقد اكتنفه الجلاوزة يسوقونه إلى الجن، فأبصر موسى وميضة في طرف دكان مزين فاختطفها كالبرق، وأمرها على حلقومه، فإذا هو يخور في دمائه.

يسألهم من قتل هذا الإنسان؟ ويجيبه صديقه مسكويه عن سؤاله ، ثم يذيل الجواب بنفي الشجاعة عن مثل هذا المنتحر، لأن فعله من أثر النفس الغضبية لا من أثر النفس الناطقة، فهو جبان ضعيف، حاول أن يستريح من تحمل المشقة والنكول يسمى جبنًا (٥٥). ويروي أيضًا أنه شاهد رجلاً من أهل العلم : "ساءت حاله، وضاق رزقه، واشتد نفور الناس عنه، ومقت معارفه له، فلما توالى هذا عليه دخل

يومًا منزله، ومد حبلا إلى سقف البيت واختنق به" (٥٦) ، فالتوحيدي يقف موقف الرافض لتصرف بشع كهذا، رغم كونه قد سمع من بعض أصدقائه الفلاسفة حمدًا وثناءً لهذا الذي انتحر، إلا أنه يتنكر لهذا الفعل، فعلى الرغم كونه يجد صورة نفسه في أولئك المنتحرين في بؤسهم وشقائهم وسوء حالهم وضيق رزقهم إلا أنه يرفض طريقتهم في التخلص من معاناتهم وشقائهم والتي تتمثل في التخلص من الحياة (٥٧).

كان هذا عرض لأهم المواقف التي يظهر لنا فيها رفض التوحيدي لواقعه وبؤسه وفقره، فلجأ تارة إلى وصف حاله من خلال عرض نماذج لشخصيات كانت تعاني الفقر والعوز، وتارة يلجأ إلى الاستجداء طالبًا العون ممن يرى فيهم القدرة على ذلك، وقد سبق لنا ان أشرنا إلى أن بعض الدارسين كانوا يرون في تلك الصرخات إذلالاً ومهانة ألحقهما التوحيدي بشخصه وبأدبه(٥٨) إلا أننا نرى أن الرجل اضطر إلى ذلك اضطرارًا ، وما كان بإمكانه أن يفعل غير ذلك لقد أدرك التوحيدي أن الاستغناء عن العمل مع السلطان كان أمرًا مستحيلاً على الرغم من حبه للاستقلالية فقال : "والعزلة محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجة إن لم تكن لها أداة تجدها (٥٩) وفاشية (٦٠) تمدها ، وترك خدمة السلطان غير الممكن ولا يستطاع إلا بدين متين ورغبة في الآخرة شديد، وفطام عن دار الدنيا صعب ، ولسان بالحلو والحامض يلغ" (٦١).

لقد كان أبو حيان فنانًا غريبًا بين أهل عصره ، عاش وحشة من يرتفع عن أهل زمانه ويتقدم عليهم ، فعلى الرغم ما أوتيه من علم وثقافة فإنه لم ينجح في تحقيق ما يريد ، فأصبح نتيجة ذلك فريسة للغيظ والحسرة ، كيف لا وهو لم يتمكن من التمتع بالحياة قبل فوات الأوان ، ألم يقل : "إن العمر قصير ، والساعات طائرة، والحركات دائمة ، والفرص بروق تأتلق ، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق ، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق"(٦٢)، لذلك اشتدت كراهيته لمجتمعه فتفر منه ، وفضل العزلة ومال إلى التصوف بعد أن خاب أمله في حياة هنيئة راضية، فانعزل عن المجتمع واتجه إلى الله ، وعندما شعر بغروب شمس العمر وبعد أن عجز عن الخلاص من الفقر الذي مل الرزوح تحت وطأته مال إلى التصوف (٦٣) وكان ذلك احتجاجًا سلبيًّا في وجه مجتمع لم يعرف قدره ، يدل على ذلك ما ذكره في رسالته إلى أبي الفتح ابن العميد جاء فيها : "لما رأيت شبابي هرما بالفقر ، وفقري غنيا بالقناعة ، وقناعتي عجزا عند أهل التحصيل عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكاني فيه وموضعي منه ، فرأيت طرفه نابيا ، وعنانه عن رضاي منثنيا وجانبه في مرادي خشنا ، وارتقائي في أسبابه نائيا ، والشامت بي على الحدثين متماديا، طمعت في السكوت تجلدا وانحلت القاعة رياضة ، وتألفت شارد حرصي متوقفا، وطويت منشور أملي متنزهًا، وجمع شتيت رجائي سالبًا، وادعيت الصبر مستمرًا، ولبست العفاف ضنًا، واتخذت الانقباض صناعة وقمت بالعلاء مجتهدًا، هذا بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين: رجل إن نطق نطق عن غيظ ودمنة (٦٤) وإن سكت سكت عن ضعف وإحنة، ورجل إن بذل كدر بامتنانه

بذله وإن منع حسّن باحتياله بخله فلم يطل دهري في اثنائه متبرحًا(٦٥) بطول الغربة، وشظف العيش ،وكلب الزمان، وعجف المال، وجفاء الأهل وسوء الحال"(٦٦).

الهوامش:

(١) ما إن دخل القرن الرابع الهجري حتى ضعفت الخلافة المركزية في بغداد ولم يبق للخليفة أي نفوذ فعلي في المملكة، فكانت بلاد فارس في بني بويه، والموصل وديار ربيعة وبكر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ثم في أيدي الفاطميين وخراسان والبلاد الشرقية في أيدي السامانية إلى جانب إمارات أخرى، وبذلك أصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلافات هي: الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في إفريقيا والخلافة الأموية في قرطبة، فأصبحت مملكة بني العباس نهب أيدي الأتراك والديلم والأتراك ما هم في الواقع إلا جيل من التتر بينما الديلم هم سكان الجبال في فارس وكلهم اجتهد لنزع تراث العباسيين من أيديهم(أمراء البيان، محمد كرد علي،ج٢،ص٤٩٤-٤٩٥)

(٢) انظر أدباء الصابئة في العصر العباسي ، د. محمد الديباجي ، ص ٤٢ – ٤٣.

(٣) الكامل، ابن الأثير، ٢١٧/٦.

(٤) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقي ، ص ٢٠٦.

(٥) انظر أمراء البيان ، محمد كرد علي ، ج٢ ، ص ٤٩٤ – ٤٩٥.

(٦) انظر القرامطة وأصلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم، عارف تامر، ص ٣٥.

(٧) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف ، ص ٥٣.

(٨) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٣٠/١.

(٩) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي، ١٥٢/١٩.

(١٠) المصدر نفسه، ٢٩٧/٤.

(١١) هو علي بن محمد بن العباس التوحيدين وقد عاش طفولته في كنف أسرة فقيرة معدومة رازحًا تحت وطأة الفقر والحاجة، فقد أبويه وعاش في كفالة عمه الذي كان يمقته ، ولا يحسن معاملته (انظر البصائر والذخائر ٤٧٥/٢)، الأمر الذي ولد في نفسه السخط الدائم على المجتمع والتذمر والتشاؤم من الحياة والأحياء، ومن هنا نجد من خلال كتاباته ذلك التمرد الدائم على المجتمع ككل ، كيف لا وقد ظل طيلة حياته يلهث وراء أمل فصدم بواقع مر، إذ وجد نفسه وحيدا فريدا غريبا فكان مما زاد في غربته أنه عاش طيلة حياته أعزب فلم يتزوج ولم ينجب فما عرف ولدًا نجيبًا ولا صديقًا حبيبًا ولا صاحبًا قريبًا ولا رئيسًا منيبًا لقد سخر الرجل حياته كلها لطلب العلم والسعي وراء الجاه والمال ، لكنه اصطدم بالفشل الذريع، إذ لم يحقق له العلم ما كان يصبو إليه، وفي فورة الغضب والثورة على المجتمع أشعل التوحيدي النار في كتبه معلنًا بذلك تمرده على المجتمع الذي لم يقدر علمه حق قدره (انظر أبو حيان التوحيدي ، إبراهيم الكيلاني ، ص ٣٤ – ٣٥)، أما عن وفاته فقد تضاربت الآراء في تاريخها ، فمن الدارسين من يرى أن وفاته إنما كانت سنة ٤٠٠ هـ (انظر أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات ، عبد الأمير الأعسم ، ص

٥٧) ، ومنهم من يرى أن ذلك إنما كان سنة ٤١٤ هـ (انظر أبو حيان التوحيدي ، إبراهيم الكيلاني ، ص ٣٤ – ٣٥ ، ومقدمة كتاب مثالب الوزيرين ، مصدرة بمقدمة عن حياته وآثاره وأدبه، د/ إبراهيم الكيلاني)، ومنهم من لم يدل برأي البتة في تاريخ وفاة الرجل ٠انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري ، زكي مبارك ١٣٣/٢) والصواب في رأينا أن التوحيدي قد أشار في الرسالة التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل على بن محمد (انظر نص الرسالة في معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٩٤/٤ وما بعدها) والتي يعلل فيها أسباب إقدامه على إحراق كتبه ، ففي هذه الرسالة يخبر التوحيدي أنه في عشر التسعين ، وقد كان ذلك في رمضان سنة ٤٠٠ للهجرة ، ومن خلال الرسالة ذاتها يبدو لنا التوحيدي في منتهى اليأس والقنوط وهو على فراش الموت ومعلوم أنه لم يصلنا بعد تلك الرسالة أي خبر عن الرجل على الإطلاق ، وفي ما يؤكد على ان وفاة الرجل إنما كانت في فترة جد قريبة من هذا التاريخ (انظر أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات ، د/ عبد الأمير الأعسم ، ص ٥٨) لذلك نجد الزركلي قد مال إلى تحديد تاريخ الوفاة بحوالي سنة ٤٠٠ هـ (انظر الأعلام ، لخير الدين الزركلي ١٤٤/٥ ، الطبعة الثانية ، مطبعة كوستاتوماس ، ص ١٩٥٦).

(١٢) الحرف : قلة الحظ ، ورجل محارف ، منقوص الحظ لا ينمي له مال.

(١٣) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ٢٩٢/٤.

(١٤) انظر معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ٣٨٥/٥.

(١٥) انظر أبو حيان التوحيدي ، د/ إبراهيم الكيلاني ، ص ١٩.

(١٦) انظر مجلة فصول في النقد الأدبي، المجلد ١٤ العدد الرابع، مقال بعنوان "الصداقة والصديق" لأحمد لأحمد كمازكي، ص ٢٨٤.

(١٧) انظر الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيد، ٣٠/١، ومعجم الأدباء، ياقوت الحموين ١٥٢/١٩ و ٢٩٧/٤.

(١٨) انظر رسالة أبي حيان التوحيدي في الرد على القاضي أبي سهل علي بن محمد ، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٩٤/٤.

(١٩) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٢١٢/٣.

(٢٠) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٩٦/٤.

(٢١) انظر مثالب الوزيرين، ص ٣١٤.

(٢٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٧/١-٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ٢٢٧/٣-٢٢٨.

(٢٤) انظر أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، محمد علي الصباح، ص ٤٨.

(٢٥) أبو حيان التوحيدي، حياته، آثاره ومروياته ورسائله، حسن السندوبي، ص ١١.

(٢٦) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٢٢٦/٣-٢٢٧.

(٢٧) انظر الفردية والأنا في شخصية أبي حيان التوحيدي، حسن نور الدين، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٤، ص ٨٧.

(٢٨) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٠٥/٤.

(٢٩) انظر الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، ص ٥.

(٣٠) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، إحسان عباس، ٢٢٧/٣.

(٣١) انظر أبو حيان التوحيدي، إحسان عباس، ص ٣٧.

(٣٢) ابن السماك "هو ابو العباس محمد بن صبح الكوفي الزاهد الوعظ المشهور لقي جماعة من الصدر الأول وأخذ عنهم وقدم من بغداد زمن هارون الرشيد وتوفى سنة ثلاث وثمانين ومئة بالكوفة" (هامش ص ١٤، ج١ من الإمتاع والمؤانسة).

(٣٣) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ص ١٤.

(٣٤)انظر أصداء المجتمع والعصر في أدب أبي حيان التوحيدي، نور الدين بن القاسم،ص٢٠٠

(٣٥) انظر الإمتاع والمؤانسة، ٥١/٢.

(٣٦) صاحب البطائح: يبدو أنه أحد أبناء عمران بن شاهين (ت ٣٦٩هـ / ٩٧٩م) ممن ورث إمارة البطائح بعد أبيه (انظر الزركلي ٢٢٣/٥).

(٣٧) أبو سؤال الكردي: لم نهتد إلى هذا الاسم فيما بحثناه من كتب التراجم ، ولكن يبدو أنه من أمراء الجبال كما يفهم من نص أبي حيان.

(٣٨) سعد المعالمي: لم أهتدي ايضًا إلى ترجمة هذا الاسم ولكن يبدو أنه من الأمراء ببلاد الشام

(٣٩) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٢٢٧/٣.

(٤٠) انظر أبو حيان التوحيدي والتراث الشعبي، مجلة فصول، المجلد ١٤، العدد ٤ ، ص ٢٦٧، ومعجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ٢٩٧/٤.

(٤١) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، تحقيق وشرح حسن السندوبي ، ص ٩٩ ، ومعجم الأدباء ، ياقوت الحموي، ج ٤ ، ص ٢٩٠-٢٩١.

(٤٢) انظر مقال "أبو حيان التوحيدي والتراث الشعبي"، مجلة فصول المجلد١٤،العدد ٤،ص٧١

(٤٣) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٩١/٤.

(٤٤) المصدر نفسه، ٢٩٢/٤.

(٤٥) انظر المصدر نفسه، ٢٨٧/٤.

(٤٦) انظر الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٦٥/١.

(٤٧) المصدر نفسه، ١٣/١.

(٤٨) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٨٨/٤.

(٤٩) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٥٠) المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٥١) لقد اضطر أبو حيان تحت وطأة الفقر ولشدة معاناته إلى أن يلجأ إلى الاستجداء والمدح المبالغ فيه، فذم بعض الدارسين اتجاهه هذا ورأوا فيه أن أبا حيان قد أحط من كرامته وأدبه عن طريق هذا النوع من الاستجداء ، ومن هؤلاء محمد علي الصباح في كتابه "أبو حيان التوحيدي فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة" ، ص ٣٦-٣٧، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك ، ص ١٦٦.

(٥٢) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ص ٢١٧-٢١٨.

(٥٣) انظر أبو حيان التوحيدي، إحسان عباس ، ص ١٠٩-١١٠.

(٥٤) الهوامل والشوامل، أبو حيان التوحيدي، ص ١٥٠.

(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٥٦) المقابسات، أبو حيان التوحيدي، ص ٢١٩.

(٥٧) انظر أبو حيان التوحيدي، د. إحسان عباس ، ص ١٠٨.

(٥٨) انظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك ، ص ١٦٦ ، وأبو حيان التوحيدي، فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، محمد علي الصباح، ص ٣٦.

(٥٩) تجدّها : تجددها.

(٦٠) الفاشية: ما انتر من المال.

(٦١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ١٤/١.

(٦٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، ٣٦/١.

(٦٣) نود الإشارة إلى أن التوحيدي في تصوفه كان صوتًا ناشزًا عن بقية متصوفة عصره، فلم يؤيد خرافات الصوفية في العزوف عن المادة والتجرد للحياة الروحية البحتة لأنه مارس الحياة وعرف موضع المادة منها وكابد متطلبات الإنسان الجسمانية ، وفي رأيه أن الموسرين فقط يمكنهم الانقطاع الكلي لله والانصياع المطلق للنسك، يقول : "العزلة محمودة إلا أنها محتاجة إلى الكفاية والنقعة مزة (خمرة لذيذة) فكهة ولكنها فقيرة إلى البلغة، وصيانة النفس حسنة إلا أنها كلفة محرجة" (الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي، ص ١٤).

(٦٤) الدمة: الحد القديم.

(٦٥) تبرّح: تألم وتضجر.

(٦٦) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٤/٣٠٥-٣٠٦.